مجلة رفوف – مخبر المخطوطات – جامعة أدرار – الجزائر ــــــــــــــــــــــــ المجلد: 11 / العـدد: 01 (جانفي) 2023 ص 965 –975
ISSN: 2335-1381 EISSN: 2602-5949 Legal Deposit: 2013-6352

المديح النبوي الصوفي بالسنغال

The sufi madih nabawi in Senegal

عبدالوهاب مهوي [1] ، الأستاذ الدكتور: إدريس بن خويا [2]
Abdelouhab MAHOUI [1] ، Idriss BENKHOIA [2]
1- جامعة أدرار (الجزائر) ، Rikawahab58@gmail.com
2- جامعة أدرار (الجزائر) ، Benkhoia.idriss@gmail.com
مخبر المخطوطات الجزائرية في إفريقيا

تاريخ الاستلام: 2022/09/07	تاريخ القبول: 2022/12/03	تاريخ النشر: 2023/01/22

الملخص:

يعتبر المديح النبوي الصوفي عند شعراء التصوف بالسنغال أكثر الأغراض الشعرية القديمة والحديثة التي حظيت بإهتمام شعراء المنطقة منذ أن فتح الله عليهم نور الإسلام وحب اللغة العربية، فهي عندهم شعر دينيٌ ينطلق من رؤية إسلامية، تطبعه الروحانية الصوفية من خلال التركيز على "الحقيقة المحمدية" التي تتجلى في السيادة والأفضلية. حيث كان للمشايخ والدعاة والعلماء من أصحاب الطرق الصوفية، لاسيما التيجانية، الفضل الأكبر في تطوير المديح الصوفي بالسنغال وخاصة الذين تربّوا في زواياهم على إنشاد المدائح النبوية المصبغة بالنزعة الصوفية تعبيرا عن مدى محبتهم لرسول الإسلام محمد صلى الله عليه .

الكلمات المفتاحية: الصوفي، السنغال، الحقيقة المحمدية، القصيدة، الديوان، التيجانية.

Abstract:

The **sufi madih nabawi** is an ***ancient and modern*** poetic purpose that has been taken into a great consideration by **sufi** poets in Senegal.since they converted to islam and learnt Arabic.The **sufi madih** start from Islamic perception characterized by spiritual Sufism.that focuseson that truth of prophet Mohamed(peace be upon him) which is reflected in sovereignty and preference .the **sufimadih** in Senegal improved and developed thanks to **sufi** scholars and followers especially **tijaniyyah** order followers those raised in **zawayya** to chant **madih nabawi** with a **sufi** touch to express their love and respect to prophet Mohamed (peace be upon him).

Keywords: Senegal .the truthof prophet mohamd. **Tijaniyyah** .divan. poem. **Sufi.**

المؤلف المرسل: عبدالوهاب مهوي، **الإيميل**: Rikawahab58@gmail.com

1- مقدمة:

انتشر شعر المدائح النّبوية بالسنغال فأهتم به شعراء المنطقة لكونه أكثر الأغراض الشعرية التي عرفوها قديما وحديثا ، حيث استمرت عندهم كشعر دينيٌ ينطلق من رؤية إسلاميّة، تطغى عليه الروحانيّة الصوفيّة من خلال التركيز على الحقيقة المحمديّة تارة واظهار حب النّبي صلى الله وسلم تارة أخرى بإعتباره سيد الكون والبشر. وقد أبدع هؤلاء الشعراء السنغاليّون في نظم المديح الصّوفي أيما إبداع ونافسوا فيه فطاحل شعراء المديح القدامى كالبوصيري وكعب بن زهير وغيرهما كثير. وكما تأثروا بهم تأثيرا كبيرا تجلى في اغلب قصائدهم ولاسيما ميميّة البوصيري التي حفظوها منذ أن كانوا صغارا، وفهموا معانيها حتى استقرّت في أذهانهم، وعقولهم. ومنه فالمديح النّبوي عند متصوفة السّنغال هو أحد أجناس الشعر التي قويّت وقام عودها وصلبت عندهم كونها المتنفّس الذي يعبّرون من خلاله عن عواطفهم الدينيّة، المليئة والمفعمة بحب سيّد الخلق محمد صلى الله عليه وسلم . فهل المديح النبوي الصّوفي بالسّنغال وليد الأغراض التقليديّة القديمة؟ وكيف نشأ؟ ومالخصائص التي تميزه عن غيره من الأغراض؟

2-التعريف بالمديح النبوي الصوفي:

للوقوف على بعض التعاريف المتعددة لمصطلح المديح النبوي الصوفي نجده يتكون من(المديح النبوي) فالأولى هي مفرد وجمعها مدائح ، وفي تعريفه يقول علي بن محمد الجرجاني "هو الثناء باللسان على الجميل الاختياري قصدًا " (الجرجاني، 1983، صفحة 207)

ومنه نفهم أن المدح ثناء يكون باللسان على من أسدى إليك معروفا اختيارا لا إجبارا وفي حال القصد .اما اللفظة الثانية – النبوي- هي نسبة إلى سيد الخلق النبي صلى الله عليه وسلم اما لفظ (الصوفي) فهو اشارة الى السلوك التعبُّدي لطائفة معينة من المسلمين السنغاليين. وبالتالي فالمدائح النبوية عموما قصائد قيلت في ثناء النبي صلى الله عليه وسلم والإشادة به، وذكر أوصافه، الخَلقية والخُلقيّة بعد وفاته.

ويلاحظ على هذا التعريف أنّه قصر المديح النبوي على السادة الصوفية، مع أن هناك غيرهم مدح النبى صلى الله عليه وسلم؛ ولعل ذلك لاشتهارهم به، واهتمامهم بمدح النّبئ أكثر من غيرهم، وقيل فى تعريف المدائح النّبوية أيضًا: "هى الشّعر الذى يهتم بمدح الرسول وآل بيته وتعداد صفاته الخُلقية، والخَلقية، وإظهار الشوق لرؤيته وزيارته". (صمب، 1978، صفحة 151)

وقد حظي فن المدايح النبوي بالسنغال المنزلة الكبيرة، والدرجة الرفيعة فلا يكاد يخلو منزل من بردة البوصيري والتى تُدرّس في الزوايا والكتاتيب ، وتقرأ وتنشد في المحافل الدينية تبركا بها عند أكثر الشعراء.

3-عوامل نشأة شعر المديح الصوفي بالسنغال

السنغال دولة تقع في غرب إفريقيا، على شاطئ المحيط الأطلسي، يتكون سكانها من عرقيات زنجية متعددة أهمها الوولف والبولار ولكل عرق لغته الخاصة به، ويدين معظم ساكنة المنطقة بالإسلام. فقد عرف السنغاليون الإسلام والثقافة العربية بتأثير من دول تعاقبت على منطقة غرب إفريقيا وأقاليم مجاورة للسنغال ،ويرجع المؤرخون سبب إنتشاره إلى نشاط تجار شمال إفريقيا بحثا عن مناجم الذهب الأسطورية . ولأن السنغاليون يولون لدراسة اللغة العربية وتدريسها عناية خاصة، كون أن مراكزهم الروحية تُجَذِّرُ حضور اللغة العربية التي كان فيها الشعر سيدَ الآداب العربية، وديوانَ المستعربين منهم. فمنذ القرن الثالث عشر الهجري، والتاسع عشر الميلادي لم تعد السنغال تقتصر على الأخذ والاستمداد، بل ضمنت للغة العربية ومعارفها إشعاعاً ذاتياً ينطلق من السنغال، وإليها، وكانت معظم الحواضر الروحية الكبرى في السنغال محط رحال الأدباء والعلماء وحتى الشناقطة –الموريتانيين– خاصة في المواسم الدينية، التي تتحول إلى منابر أدبية تتعالى من فوقها أصوات الشعراء السنغاليين. ولقد وجد السنغاليون في بيئتهم الثقافيّة تلك، ما يحرك سواكن الإبداع، ويثير كوامن الموهبة الشّعرية، والتي لم تنقطع صلتها بين السنغال والعالم الإسلامي خصوصا شمال إفريقيا بفعل نشاط العلماء الدّعاة الذين تخرجوا في معاهد فاس والقيروان وتمبكتو وبلاد شنقيط وكان لهم دور كبير في تعزيز تلك الصلة،. وكان من نتيجة هذا التواصل أن انتشرت في السنغال الطرق الصوفية انتشارا واسعا حيث أصبح كل مسلم سنغالي يتبع طريقة صوفية اضافة الى التأثير القوي في المجتمع السنغالي. فكل هذه العوامل افضت الى نشر شعر المديح في أطراف السنغال، وفي كل مراكز الاستقطاب الصوفي بها، بالرغم من مضى نحو قرنين والأرض السنغالية لازالت واحة خصبة من شعر وأدب وعلم رفيع. وواضح أنه ما كان للمديح النبوي الصوفي أن ينمو إلا في كنف تلك العوامل، وما كان له أن ينفكَّ عن تأثيرها لأن واقع الشعر الصوفي السنغالي نفسه متأثّرا بالبيئة الثقافية التي تحيط بالسنغال، وخصوصا مع طغيان اللغة الولفية كبرى لغات المنطقة إلى جانب اللغة العربية التي يكون بها التعبير عن أدقِّ الأحاسيس والمشاعر.

إن شعر المديح النبوي الصوفي بالسنغال حتى وإن لم تَكُن له سمات مميزة . الا أنه بقي متأثِّرٌ بحركة الشعر العربي في محيطاته الواسعة، والذي هو أيضا سليل تلك البيئة الثقافية الرحبة التي غذته بنبع حياته، وأمدّته بأسباب نمائه. ولعل تطور الثقافة العربية الاسلامية في السنغال لعامل مهم في ظهور شعراء صوفيون لهم باع طويلة في شعر المديح الصوفي في تلك الربوع، اعتمدو نفس الأساليب الشعرية القديمة فضلاً عن أشعار التوسل ومدائح الرسول صلى الله عليه وسلم.

كما أن الفضل في نشأة المديح النبوي الصوفي في هذه المنطقة راجع الى ثلة من الشيوخ والشّباب من أصحاب الطرق الصوفية، لاسيما التيجانيّة، وبخاصة الذين تربّوا في زواياهم على إنشاد المدائح النّبوية، وكل الذين كانوا يفرغون كلَّ قواهم في استظهار متون تلك القصائد المدحيّة المصبغة بالنزعة الصوفية عندهم والتي كانت خِطاباً مفتوحاً يحقن الصوفية ماء الوجه عندهم، مع اعتقادهم على أن لهم ثوابًا في قراءة تلك المدائح النّبوية، والقرض على منوالها، ولقد أثرت فيهم تلك القصائد فتأثروا بها في تكوينهم الشعري، كما ملكتْهم ناصيّة القول والشّعر، فانفجرت منهم مناهل الوجدان للتعبير عن مدى محبتهم لرسول الإسلام محمد صلى الله عليه وسلم، فمنهم من جال وصال في قول المديح النبوي متاثرا بالنزعة الصوفية تأثيرا مباشرا أو غير مباشر.

ولعل خير العوامل التي دفعت شعراء السنغال إلى قول المديح النّبوي اعتناقهم الإسلام قبل قيّام المرابطين عن رغبة وقناعة، لا عن إكراه ولأن الإسلام ظل منتشرا بينهم حتى في ظل سيادة دول أوروبا المستعمرة ، فبعدما أن تعلّموا العربية لغةَ الإسلام ولسان رسول الإسلام، أصبح الإسلام عندهم عاملاً داخلياً، غرس في قلوبهم حبَّ النبي، كما كانت اللغة العربية هي العامل الخارجي الذى ساعد في إخراج ما في قلوبهم من حبّ زائد للنبي صلى الله عليه وسلم، من حيز العدم إلى عالم الوجود. فكان حبُّهم الملحوظ للنبي متبلورٌ في ثوبه الملفوظ، حتى وإن كانت اغلب هذه القصائد المدحية تجرى مجرى المحاكاة والتبعيّة.

فالمديح النبوي الصوفي متكاثر في دواوين شعراء السنغال حتى أنهم لا يتطرقون إلى موضوع من موضوعات العلم، أو غرض من أغراض الشعر المعروفة إلا ويفتتحون به، فإن لم يستهل به شاعر في مطلع القصيدة، فإنه يختتم به لامحالة، وقد جُبل شعراء المنطقة على هذه العادة منذ أن رسخ الإسلام أقدامه في القارة، وفي هذا الصدد، يقول عبد الرحمن عبد العزيز الزكوي "ولما رأى زهدة الشعراء، وسادة العلماء، وقادة الأدباء الأتقياء ما في مدح الرسول صلى الله عليه وسلم، والصلاة عليه من حلاوة، وطلاوة، وحفاوة، وكرامة، وسلامة، جعلوا يقتحمون لجّ بحره العميق نثراً ونظماً، تشطيراً وترييعاً، وتخميساً بمناسبة إحياء ذكرى مولده". (الزكوي، 2008، صفحة 58)

وللمدح النبوي مكانة مرموقة عند بعض مسلمي السنغال، فمثلا الزواج عندهم لا يتم إلا بحفظ بعض من المدائح النبوية، فكل من رجالهم ونسائهم، وصغيرهم وكبيرهم، وتاجرهم ومثقفيهم، يحفظون قصائد العشرينيات عن ظهر قلب أو يحفظون جلّها. ويعد الشيخ إبراهيم إنياس أشهر شعراء المديح النبوي الصوفي في السنغال، يقول في ديوانه على سبيل المثال:

أبَى القلبُ إلاّ أن يَكون متيّمًا حَليفُ رامي بالنّبيِّ مُهيمنَا
أبيتُ بليلٍ ألتَمّ سَهران مُنشِدا لِذكرى الّذي قدْ طَاب بَدءا
أنْظُم دُرّاللفظِ في ذكرِوصفهِ نِيامًا وجُفني كالمُذانبِ مَغرمِي
مُحمد مِفتاحُ الفتُوحاتِ سَيِّدي واحسن بوصفِ البَدرِ دَرا مَنظمَا
به نَال كلّ الأنبياءِ منالُهم وختمَ سِلك الرُّسلِ ختمًا مُقدمًا (إنياس، 1999، صفحة 188).

4-أشكال المديح النبوي الصوفي بالسنغال:

اتخذ المديح النبوي الصوفي بالسنغال أشكالا في صوره وألوانه ساهمت كلها في رفع القناع عن عرض وطول هذه القصائد المدحيّة سواء كان ذلك في الكيف او في الكم. وذلك أن شعراء المديح الصوفي منهم من يطيل النَّفَس في مدائحهم النبويّة، وبالمقابل منهم من يقتصر في ذلك. لذا فمعظم هؤلاء الشعراء صُنفت قصائدهم المدحيّة إلى شكلين، شكل دواوين تارة وشكل قصائد تارة اخرى.

ولعل الشكل الاول – شكل الديوان– نال اهتماما كبيرا لدى متصوفة السنغال فأول من فكّ ريادة المديح الصوفي الشاعر السنغالي الشيخ إبراهيم إنياس والذي دبّج شهرته بستة عشرة من دواوينه، كلها مؤسسة على الحروف المعجمية واشهرها ديوان "تيسير الوصول إلى حضرة الرسول" ويتكون من 28 قصيدة في392 بيتا وديوان إكسير السعادات في مدح سيد السادات" وهو في 31 قصيدة و490 بيتاً، وديوان سلوة الشجون في مدح النبي المأمون" وهو في 13قصيدة و14 مقطعة من 433 بيتًا، وديوان أوثق العرى في مجد سيد الورى وهو في 28 قصيدة ومقطوعة واحدة من 375 بيتًا، وديوان شفاء الأسقام في مدح سيد الأنام" وهو في 30 قصيدة من 449 بيتا وديوان " مناسك أهل الوداد في مدح خير العباد" وهو في 27 قصيدة ومقطوعة واحدة من 571. وللشيخ عباس صل السنغالي ديوانان على هذا النمط، أولهما ديوان "جواهر البديع في التوسل إلى الله البديع في مدح الحبيب الشفيع" وهو من 32 قصيدة مؤلفّة من 416 بيتاً، وقد التزم في وضع قصائده على ثلاثة عشر بيتًا، والثاني بعنوان "فتح القدير بتيسير العسير في مدح البشير النذير"، احتوى على 29 قصيدة ذات ثلاثة عشر بيتاً ويبلغ كلها 377 بيتًا14.

ولعل أضحم ديوان وأروع المدائح النبويّة تفنناً في الأسلوب وقناعةً بالأفكار والمعاني ما جادت به قريحة الشيخ آحمد جى السنغالي. وذلك لأنه وضع ديوانه وأسماه "الهدايا النبوية" والتزم ببناء قصائد على جميع الحروف الأبجدية، وابتعد عن التكلّف والصنعة لقدرته الشعرية. ومثال ذلك ما قاله في ظائيته التي طوّل فيها برشاقة الأسلوب وطرافة المعاني والتي مطلعها:

مُحمّدُ المَحمُودُ ممْدوحُ ربّه ومَودّه بِالبّر والخَيرُ لافِظُ
هُو السَّيد المَبعوثُ عدلاً ورحمةً فبالسِّيف قتّال وبالذِّكر واعِظُ
تَحلّى بأوصافِ الكمالِ جمِيعهَا وربّى عليها الصحب والعبء باهظ
وما جاء في التاريخ أمي أمة بأفْضلَ تعليمِ لمن هوّ لامظُ (جي، 2009، صفحة 143).

ومن الذين ذاع صيتهم في هذا المجال الخليفة الحاج محمد انياس الكولخي صاحب ديوان "خاتمة الدرر على عقود الجوهر في مدح سيد البشر"، وهو في 174 قصيدة و5240بيتاً هذا الذي يعتبر من أوائل ناظمي شعر المدائح في عصره .وقد لا يتسنى لباحث أن يعدّ أو يحصي عدد الكتب التي ألفها.

اما الشكل الثاني– شكل القصيدة– فهو الشكل الآخر الذي جرى عليه المديح النبوي الصوفي، فمن الشعراء من طوّل قصائده، ومنهم من قصرها، وعلى كل حال، فإن قصائد المخطوطات فاقت قصائد المطبوعات عندهم، اضافة الى انواع من المخمسات والمربعات التي أبدع فيها أصحابها. ففي نظام القصيد، وبنائه استأثروا بالبحور المألوفة، والقوافي المرسلة، وكان البسيط والطويل ،والكامل الأكثر حضورا والاوفر حظا في مدائحهم. والملاحظ في بعض مضامين قصائدهم وقوف على الأطلال، على طريقة القدامى، ثم الخلوص في الأخير بذكر أخلاقه وأوصافه صلى الله عليه وسلم والتوسل إليه في أغلب الأحيان. وعلى رأس هؤلاء الشعراء الشاعر أحمد بمب امباكي الذي ألّف الكثير من القصائد في غرض_المديح منها على سبيل المثال قصائده المجموعة في مؤلفه الموسوم بمقدمة الأمداح في مزايا المفتاح ووالذي يتضمن ثمانية وتسعون بعد المائة بيتا بحروف الاية الكريمة﴿ **وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ** ﴾ (الاية 4 من سورة القلم).

ويعد من أكبر شعراء المديح وله قصيدة رائية جميلة يقول في مطلعها:

قَلبي لَهُ في عِتابِ الجسمِ تكْرار لأنَّه للهُدى والنُّور جِرّار
يلومُ جسمِي دأبا فِي الجلوسِ بلاَ علمٍ ولا عملٍ والنَّفسُ غِررا (شئث، 2009، صفحة 55)

وينسب إلى الشيخ أحمد التجاني قصيدة لامية بعنوان "لامية العروس في مدح الرسول"، وهي من أروع قصائده وأبلغها حيث ألزم على نفسه ترتيب أبياتها عند افتتاح كل بيت ترتيبًا هجائيًا، وفيها يقول:

تَرى تَارةً قبراً لِتربة قَبرهِ وتارةً تأتِيه تُبادى مُجنْجِلا
ثَراه ثراءٌ إن ثَويتَ بثُلةٍ فَثمرةُ أثوابُ المثوبِ كَفى إلّا (جي، 2009، صفحة 143)

وللشاعر الحاج مالك سي قصيدة مدح سار في بنائها وتشكيلها على نهج البوصيري، وكان يعارضه فيها بيد أنه أخفق في جماليات النص فلم يستطع أن يلحق الاول بالأخير في ميدان الإبداع والتصوير يقول في مطلعها:

الحَمدُ لله ذِي الإيجادِ والقِدَم مُمدُّنا بوجودِ البَدرِ ذِي القِدَم
ثُمَّ الصَّلاةُ والتسليمُ يفوقُ على مِسكٍ ورندٍ على ذِي الفضْلِ والقَدَم
وآله المُهتدين الخَيِّرةِ الكُرمَا المَأتمّي سيرةُ المُختارِ والقَدَم

فمن شعراء المديح من سلك مسلكًا جديدًا يعتمد على اختيار أساليباً فنية جديدة، لم تكم معروفة من قبلُ، ومن ذلك نجد الشاعر أحمد جي الكولخي، ويعد من المكثرين في فن المديح النبوي، ولكن بطريقة جديدة مواكبة لعصره، يقول في بعض قصائده المدحية:

مَنّ الله في مَدح النَّبيّ نصوصُ وذلكِ فِيه حُرمةٌ وخُصوصُ
سأذْكُر مِنها آيةٍ بعْد آيةٍ إذا كُنتَ ذا فَهمٍ فتِلك فُحوصُ
لقَد قال ربّي وهُو مَدحٌ مُصرّحٌ وليسَ سِوى أن يقتَضِيه مَحيصُ
رَؤوفٌ رَحيمُ بالجميعِ علَى هُدى يَعمُّ جميعَ المؤمِنينَ حَريصُ (جي، 2009، صفحة 143)

لقد بقي متصوفة السنغال متمسكين بالأصالة في تجربتهم الشعرية، والقدم في ألفاظهم ومعانيهم مما جعل الرتابة ظاهرة طاغية على أشعارهم ، حيث لا تكاد تخلو قصيدة من قصائدهم من التشابه والتكرار في المواضيع والأخيلة.

5-خصائص المديح الصوفي السنغالي:

يتميز المديح النبوي الصوفي عند شعراء السنغال بخصائص لم تخرج عن طوع مثيلتها في الأقطار العربية الأخرى، إلا في بعض الوجوه. فالحقيقة أن الإنتاجات الشعرية الجيّدة لا بدّ أن تخرج على سجيتها، لتتكون فيها أربعة عناصر، وهي العاطفة والأفكار والألفاظ والخيال. وإذا امعنا النظر في معظم قصائد المديح عند متصوفة السنغال، نرى أنها من ناحية المضمون شعرٌ دينيٌ ينطلق من رؤية إسلامية تطبعه الروحانية الصوفية خاصة وانه يهدف الى تغيير الناس وإصلاحهم من خلال التركيز الحقيقة المحمدية، ومن أروع الأمثلة الجديرة الذكر في ذلك ما وصف به الشاعر السنغالي شيخ تجان غاي مدائح الخليفة محمد انياس الكولخي في ديوانه خاتمة الدرر في عقود الجوهر اذ قال بانه يتفنن في ابراز مدى تعلقه وحبه الفاني في ممدوحه محمد صلى الله عليه وسلم بإدراج إشارات صوفية زحر بها ديوانه خاتمة الدرر وكذا تعابيره الجميلة عن حب الأماكن المقدسة والأراضي الطاهرة والشوق العارم الى زيارة روضه صلى الله عليه وسلم وفي هذا الصدد يقول الخليفة محمد انياس في قصيدة من قصائد ديوانه الشهير "خاتمة الدرر على عقود الجوهر في مدح سيد البشر":

الَى طيبةِ الغراءِ فالقُبّة التّي به تُذهبُ الأحزانَ والضَر والبَلوَى
مَحلّ نُزولِ المُصطفى ومَقامُه ومَدفنُه فيهَا الى جَنّة المَأوى
فلا شَيء يُلفي مثل تُربتُه التّي عَلت فوقَ شَمِّ الراسِيات ولا غَرُوا
فذاك مَحلٌّ ضَمَّ جسمًا معظَّمًا حوى مِن بديعِ الحُسنِ مالم يَكن يَحوِي

وكما يلاحظ من ماتقدّم من النماذج الشعرية السابقة في هذا المجال أنها تتّسم بصدق المشاعر، ونبل الأحاسيس والعاطفة الصادقة، وورقّة الوجدان في حبّ النبي محمد بن عبد الله (صلى الله عليه وسلم) طمعاً في شفاعته ووساطته يوم الحساب، ذلك تبعا لما جاء في فهم معنى هذه الآية: ﴿ قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾." (الاية 31 من سورة ال عمران).

هذا، فإن نفوس شعراء المديح الصوفي إصطبغتها ألوانا من العواطف التي لها علاقة تامة بالنزعة الصوفية سلباً وإيجاباً، وكما تظهر عندهم العاطفة المتوقِّدة إلى الارتجال بقصائد المديح النبوي، والتي تدفع بهم إلى التَّجسيد والتَّشخيص البلاغي في أعمالهم الأدبية في هذا المجال، ولعل إدراك مثل هذا التشخيص البلاغي نلحظه مثلا في قول الشيخ فضل كلود الدكو، حيث قال:

نُورٌ انْجلىَ في سَماء الكَونِ فِي الظُّلمِ كأنّهُ البدرُ بعدَ الخَسفُ والغِيمَ
طَابت بِه الأرضُ واخْضَرّت مَرابِعُها وطَابَ مِن طيبِهنّ القَاعُ والأكمُ
وفاضَ بالغيثِ بصحًا وهي قاحِلةً فَعمّم اليُمنُ كلّ القفرَ والأجَمُ((الدكو، 1998، صفحة 18)

وأما من ناحية الأفكار والمعاني التي تحتويها مدائحهم الصوفية نجد أنها متأثرة بمدائح سابقيهم على غرار البوصيرى، لأن أغلبها تدور حول مناقب الرسول وبطولته التاريخية، وصفاته الخَلقية، وميزته الخُلقية كما اتضحت الإشارة إلى ذلك من بعض النماذج السابقة. فالحقيقة أن اختيار الألفاظ للتعبير عن المديح النبوي الصوفي متأثر بما وصل من الأعمال الشعرية السابقة مثل قصائد فحول الشعراء في العصر الجاهلي والاسلامي والعباسي التي تفتحتْ بها مواهبُهم الشعرية، فكرّسوا حياتهم لصقل تلك المواهب، والسبب في ذلك يعود إلى النزعة الشديدة إلى إبراز مقدرتهم اللغوية بين أقرانهم، فكثرتْ الألفاظ الغريبة في بعض أعمالهم في هذا المجال، الأمر الذي أدّى ببعضهم إلى التزام ما لا يلزم في عالم الشعر العربي.

ومن الأمثلة في استخدام غرائب الألفاظ قول الشيخ أحمد جى السنغالي:

بَنى فأنْبَنَتْ مِن بَعده كَلّ بنيِه على بُنى، والغيرِ للخَيرِ شَامظُ (جي، 2009، الصفحات 142-143)

ومثل ذلك قول الشيخ محمد بللو:

قَد فرّ يطلبُ ربَّهُ في غَارِهِ فأتَاه جِبرائيلُ ثم تنكْنكَا (سعيد، 1993، صفحة 22)

وأما من ناحية الشكل فهؤلاء الشعراء المتصوفون قصائدهم تستند أدراجها من طرق مختلفة في الأوزان وفي القوافى، ولأن كون معظمهم ما شقُّوا العصا في تجزئة العمود الفكري في مدائحهم فعرفوا بانواع منها "النّسيب النّبوي"، وفيه يتشوّق الشاعر إلى المدينة النبويّة التي تضمّ قبر النبي وغيرها من الأماكن المقدّسة، ومنها عرض القصيدة، وفيه يعرض الشاعر سيرة النبي صلى الله عليه وسلم ويسرد صفاته الخَلقية والخُلقية، ويذكر شمائله الطاهرة. وقد يركب الشاعر كلَّ صعبٍ وذلولٍ لعرض غير ممرّدٍ لمعجزاته صلى الله عليه وسلم ،ومنها إقرار الشاعر بذنوبه وطلب العفو عنها. وإضافة الى ذلك شكل العمود القائم على نظام الشطرين ووحدة الروي والقافية وإعتماد التصريع والتقفية في المطلع الأول من القصيدة، وكما تتسم قصائدهم بالنمط الكلاسيكي بتعدد الاغراض والمواضيع على غرار الشعر العربي القديم. فبناء القصيدة غالبا ما يكون على المقدمة الطللية ومدح الرسول صلى الله عليه وسلم والتصلية والدعاء والاستغفار والتوبة ولعل هذا البناء هو ما أفقد المديح النبوي عموما الوحدة الموضوعية على الرغم من وجود الإتساق اللغوي على مستوى سطحه الظاهر والانسجام على مستوى عمقه الدلالي .وفيما يخص إيقاع القصيدة الخارجي نجد ان قصائد معظمهم شعراء الصوفية تعتمد على جميع البحور التي تناسب الأغراض الجلية كالمدح والتصوف الروحاني ونحو ذلك وبخاصة البحور الطويلة. وإذا امعنا النظر في الإيقاع الشعري الداخلي فنجد أن شعراء المديح الصوفي كثيرا ما يستعملون ظاهرة التصريع والتوازي الصوتي والتكرار الإيقاعي والجمع بين الاصوات المجهورة والمهموسة ليتم إنسجام الايقاع الشعري مع الجو الموسيقي والنفسي والدلالي. وأما فيما يتعلق بالقوافي فنجد ان شعراء المديح الصوفي بالسنغال لم يتركو حرفا من حروف الأبجدية الا وأستعملوه كروي ومثال ذلك ديوان "مراة الصفا" للخليفة مخمد انياس الذي قافيته الهمزة في 680 بيتا من البحر الخفيف ، فكل من احرف الهمزة والميم واللام والراء والتاء عندهم هي قواف صالحة لرصد التجربة الشعرية المولدية والصوفية والروحانية.

هذا فإن هؤلاء الشعراء وفي تلك المنطقة صوّروا خيالهم من خلال الاستعانة بعالم الشعور والإدراك والفهم والأداة الحية المتجدّدة في ذاكرتهم، التي تحتفظ بكل ما يرونه ويسمعونه ويحسونه من بيئتهم والتربية الإسلامية الصوفية التي لا ينضب معينها، لا سيما الأماكن المقدسة وما جاورها من الأماكن المهمة التي تقام بها الشعائر الدينية. ولعل مثل هذا الخيال الداخلي والخارجي هو النافث للمعاني الدقيقة في نفوس أصحاب المديح في غرب إفريقيا بصفة عامة وبالسنغال على وجه الخصوص، فالمتتبع للأوزان والنغمات الموسيقية في مدائحهم، يرى أن

أصحابها استخدموا بنجاح غير قليل في معظم الأوزان الخليلية المعروفة، أغلبها البحر البسيط ثم الطويل ثم الكامل وغيرها، والسبب في ذلك يرجع إلى انتهاج معظهم نهج البوصيري في المديح النبوي. وبالرغم من ظهور جيل جديد لم يعجبه هذا التقليد السافر عند هؤلاء الشعراء القدامى سواء أكان في الألفاظ والمعاني، والأغراض الشعرية . بل ولزم هذا الجيل التجديد طريقا ومسلكا له في قصائد المديح بحيث يبحث عن ما يواكب العصر ويهتم بالحياة الاجتماعية ويصور الواقع المعاش ، ويحوم في كل الآفاق بحيث لا يحدهم عواطف ولا أخيلة .

6- خاتـمة:

لقد اتسم شعر المديح الصوفي بالسنغال بالروحانية فنشط هذا الإتجاه الشعري في بيئة خصبة لنموه وفي أوساط فقهاء وعلماء ودعاة تطبعت مدائحهم بالكلاسيكية في شكلي الديوان والقصيدة، إذ سلكوا بالمدح النبوي مسلك التصوف والولاية والصلاح وتوجهوا به الى الثناء على خصال سيد الخلق محمد صلى الله عليه وسلم. بأساليب شعر صادق بعيد عن التزلف والتكسب، يجمع بين الدلالة الحرفية الحسية والاشارة الصوفية الروحانية. وفي رؤية دينية إسلامية، تمتع لغته وبيانه وإيقاعه وصوره وأساليبه من التراث الشعري القديم. وعلى أي حال فالمديح يوصف بأنه شعر صدق المشاعر ونبل الأحاسيس ورقة الوجدان وحب الرسول صلى الله عليه وسلم طمعا في شفاعته ووساطته يوم الحساب.

وفي الأخير نستنتج أن المديح الصوفي بالسنغال مساحة فنية، يسعى من خلالها الصوفيون إلى رسم أساسيهم بالألفاظ الإشارية ومختلف الرموز، وكما يسعون أيضا إلى التعبير عن مواقفهم بالوزن والإيقاعات، فأغلب قصائدهم تقريرية في أسلوبها، يغمرها النفس الخطابي والتعبير المباشر. ولأن الاهتمام بالمضمون عندهم يكون على حساب الإهتمام بالشكل، بإستثناء بعض التجارب الشعرية .

7- قائمة المصادر و المراجع:

1/ الشيخ إبراهيم إنياس. (1999). *الدواوين الست*. السنغال.

2/ أحمد جي. (2009). *هدية غاية المأمول في مدح الرسول*. كولخي، السنغال.

3/ شيخو أحمد سعيد. (1993). *حركة اللغة العربية وآدابها في نيجيريا* (المجلد 2). شركة العبيكان.

4/ عامر صمب. (1978). *الأدب السنغالي*. السنغال.

5/ عبد الرحمن عبد العزيز الزكوي. (2008). *فتح الحنان في الصلاة على خير ولد عدنان لاغوس*. شركة رضوان الله أكبر للطباعة.

6/ فضل كلود الدكو. (1998). *الثقافة الإسلامية في تشاد في العصر الذهبى لأمبراطورية كانم من 1000/600* (المجلد 1). منشورات كلية الدعوة الاسلامية.

7/ عبد الوهاب دنلاد شئث. (2009). *الشعر العربي النيجيري بين الماضى والحاضر* (المجلد 1). سليجا: مطبعة بيق.

8/ علي بن محمد بن علي الزين الشريف الجرجاني. (1983). *التعريفات* (المجلد 1). (ضبطه وصححه جماعة، المحرر) بيروت: دار الكتب العلمية.